سينما

«الحياة حلوة» لمحمد جبالي

حقّ أن تكون فلسطينياً ومخرجاً سينمائياً

في «الحياة حلوة»، يروي محمد جبالي حكاية شخصية ستكون مرآة واقع وحياة في غزة، في أثناء حرب الإبادة، وفي النرويج وبيروقراطية نظامها السياسي

محمد صبحي

عام 2014، قام محمد جبالي برحلة تبادل فنية مع النرويج. عندها، أُغلقت معابر موطنه غزة بشكل غير متوقّع، وإلى أجل غير مسمّى، بسبب الحرب الإسرائيلية على القطاع. أثار هذا مشاكل عدّة، إحداها أنّ الحكومة النرويجية لم تقبل جواز سفره الفلسطيني، ما يعني أنّه أصبح الآن بلا جنسية. ثم رُفض طلبه للحصول على تصريح عمل، وتعليم نفسه بنفسه ليكون مخرج أفلام يعني أن لا مؤهلات لازمة لديه. لذا، فهو غير مؤهّل للحصول على تأشيرة جديدة، ويُتوقّع أنْ يغادر البلد. هذا يعني أيضاً أنه حوصر مع عائلته المضيفة في مدينة ترومسو (القطب الشمالي)، ولن يتمكّن من السفر. إحدى نتائج هذا الوضع الغريب عدم تمكّنه من حضور عرض فيلمه الأول «إسعاف» (2016) في «مهرجان أمستردام الدولي للأفلام الوثائقية (إدفا . IDFA)»، الذي حقّقه مع زملائه الجدد في الشمال. نجح الفيلم، ووضع جبالي أمام خيار مستحيل: إذا عاد إلى غزة، لن يتمكّن من مغادرتها ومواصلة عمله مخرجاً سينمائياً معترفاً به دولياً. لم يرغب في ترك عائلته ومسقط رأسه إلى الأبد، ولا يريد طلب اللجوء في بلد أوروبي بارد. لم يعلم أنه ستمرّ سبع سنوات قبل التمكّن من رؤية عائلته مجدّداً.

اختار محاربة البيروقراطية الأوروبية، للإصرار على حقّه في أنْ يكون سينمائياً وفلسطينياً في الوقت نفسه. شعار «الحياة حلوة» يحاكي كلاسيكية الإيطالي فيدريكو فيلّيني بالعنوان نفسه (1960)، و«الحياة جميلة» (1997) لمواطنه روبرتو بينيني: أب يحمي ابنه في معسكر اعتقال نازي، باستخدام الفكاهة. مع هذا الشعار، يوجّه جبالي الكاميرا إلى نفسه ليتحكّم بتاريخه، ويؤثّر في مستقبله، ويخلق قصته الخاصة. فمع رفض منحه تصريح عمل، بعد طعون عدّة، رفع قضيته إلى المحكمة، بدعم من مؤيدين عديدين.

بانتظار قرار المحكمة النرويجية، متّبعاً المسارات الكئيبة للمنطقين السياسي والبيروقراطي، صوّر جبالي نفسه وأصدقاءه وزملاءه النرويجيين في هدوء الطبيعة القطبية المذهلة، المغطّاة بالثلوج. تتناقض هذه المشاهد بشكل صارخ مع الصُّور المؤلمة، والرسائل التي تلقّاها من عائلته وأصدقائه في غزة. في الوقت نفسه، يدعمه المجتمع الفني والسينمائي في ترومسو. لكنْ، رغم أنّ الفلسطيني المبتهج يتلقّى كلّ هذا الدعم، يصدر الحكم، نهاية عام 2016، بعد مناشدات مطوَّلة: يتعيّن عليه المغادرة قبل عيد الميلاد. لكنْ، إلى أين الذهاب؟ أدّى الوضع إلى دعم عالم السينما الإسكندنافية، بشعار «محمد زميلي». لهذا الفيلم الوثائقي تأثير مماثل، إذْ يصعب عدم التعاطف مع المخرج الفلسطيني، الذي حقّق شهرة كبيرة في وقتٍ قصير. لسنوات، ظلّ جبالي عالقاً في منطقة خالية من البشر، بين شتاء شمالي النرويج، حيث يشعر بالترحيب من دون السماح له بالبقاء، وغزة حيث منزله الذي لا يستطيع إليه سبيلاً. هذا الجمود يسيطر تدريجياً على ذهنه، وفي كل مرّة يُتّخذ قرار جديد بشأن وضعه، تحضر الكاميرا لالتقاط الشاشة الحكومية الرقمية، ويحضر معها ترقّب ساخر، يجب أنْ يتسلّح به الشخص المعنيّ قدر تمسكّه بشجاعة رفض اليأس.

> مخرج يُصرّ على حقه في أن يكون سينمائياً وفلسطينياً

«الحياة حلوة» يروي كيف ناضل جبالي من أجل حقوقه فلسطينياً ومخرجاً سينمائياً، عندما تقطّعت به السبل في النرويج، بسبب ظروف خارجة عن إرادته. من خلال أرشيفه الشخصي وكاميرته، يشارك حبَّه وحنينه لمسقط رأسه وأصدقائه وعائلته، بينما يحاول بناء حياة جديدة في شمال أوروبا. الفيلم رسالة حبّ إلى غزة، وإلى ترومسو، المدينة التي اختارها، وإلى القوة المتفجّرة للسرد. يوضح الفيلم كيف تمكّنت حياة أعاقتها السياسة الدولية والبيروقراطية من المضي قدماً، من وجهة نظر سينمائي يستخدم كلّ إبداعاته للتواصل مع العالم، وشقّ طريق إلى المستقبل. ينتصر جبالي لنفسه، ولكلّ متمسّك بالأمل، بمواجهة أشباح الحرب والنفي والبيروقراطية، من دون التنازل عن هويته الفلسطينية.

وضعه هذا تجسيدٌ لمحنة شعبه، الذي تعرّض للقمع عقوداً، ويمكنه مجدّداً أنْ يحظى باهتمام العالم، بسبب الوضع الحالي في غزة. الفيلم نفسه يكون أيضاً مرآةً لمحاولات غزة للنجاة والبقاء حيّة، باعتبارها أكثر المدن اكتظاظاً بالسكان في العالم، فضلاً عن حقيقة كونها «أكبر سجن مفتوح في العالم»، بفعل حصار إسرائيلي شامل منذ 17 عاماً. فالفيلم قصة إنسانية عن الحياة، وكيف يقف الناس معاً عندما تشتدّ الأوضاع. في حرب الإبادة الدائرة منذ نحو عشرة أشهر، يصعب الحفاظ على تفاؤل عنوان الفيلم.

اتكون «الحياة حلوة» فعلاً بالنسبة إلى الفلسطيني؟ (الملف الصحافي)

حوار أجرته **أمل الجمل**

بمناسبة أول روائي طويل له، حاورت «العربي الجديد» اللبناني كارلوس شاهين عن السينما والصداقة والبلد والتفاصيل الحياتية انطلاقاً من سيرته

كارلوس شاهين

«لا أستطيع التعبير إلا عن أشياء تعنيني»

أثناء دراسته طبّ الأسنان، وُلد شغفه بالمسرح، فدرسه في فرنسا، وصار ممثلاً في المسرح الفرنسي والأوروبي. عودته إلى لبنان عام 2002 أتاحت له أنْ يُصبح مخرجاً. مثّل في «أرض مجهولة» (2002)، لغسان سلهب، الذي اختاره لثلاثة أفلام لاحقة. أخرج أفلاماً قصيرة، بدءاً من عام 2008 مع «طريق الشمال»، المُرحَّب به في مهرجانات، فاستمرّ في الإخراج صابراً للحصول على تمويل. أخيراً، أخرج كارلوس شاهين «أرض الوهم» (2023)، أول روائي طويل له: عام 1958، شابّة تحلم بالحرية، في عالمٍ خاضع للسلطة الأبوية.

■ أهناك ما بعث فكرة «أرض الوهم»؟ هل فيها جزءٌ من سيرة ذاتية؟

طبعاً هناك جزء من سيرة ذاتية. كلّ شغلي في السينما ينطلق من السيرة الذاتية. «الأب» ثم «الأم» فـ«الطفل»، في «ثلاثية العائلة». لكلّها علاقة بحياتي. هذا لا يعني اعتقادي أنّ حياتي مهمة، بل لأنّي لا أستطيع التعبير إلّا عن أشياء تعنيني. عن الأب مُستَلهَمٌ من قصة لها علاقة بأبي. هناك وثائقي بعنوان «تشيكوف في بيروت»، عن مسرحية لي. ثم نسجتُ بين حياتي وعملي في المسرح في فرنسا وعلاقتي بلبنان، وكيف يرتبط كلّ هذا بقصّة عائلتي. الثالث مستوحى من طفولتي في طرابلس (شمالي لبنان . المحرّر). «أرض الوهم» مستوحى من مجتمع أعرفه. عائلة مسيحية إقطاعية ومشايخ في منطقة أصطاف فيها. هذه أشياء عشتها. هؤلاء الناس أعرفهم. لذا، ألّفت قصّة قريبة جداً مني، لمعرفتي أشياء عدّة فيها.

■ من أين جاء اختيارك الشخصية الرئيسية، التي تخصّ المرأة؟

أنا ابن امرأة. عندي أمّ. كأنّي أحكي عن أمّي. كأنّي صنعت بورتريه عن امرأة، وعن قهر عاشته.

■ والقرار الجريء الذي اتَّخَذَتْه بترك كلّ هذا، والهرب؟

لا أعرف إنْ كانت كلمة «القرار» دقيقة، ولا أعرف إن كان هذا «جريئاً». برأيي، هذا لم يكن قراراً.

■ هل تعتقد أنّه تهوّر؟

عندما تقود سيارتها، كأنّه لم يكن قراراً. لكنْ، هناك شيء يتقرّر، لأنّ حياتها لم تعد معقولة، ولا تُحتَمل. الحكاية تحصل عام 1958. إذاً، ماذا نريد من المرأة حينها؟ إلى أين تريد أنْ تذهب، تاركةً كلّ شيء؟ في منتصف خمسينيات القرن الماضي، كيف تترك امرأة مثلها كلّ هذا وتهرب؟ هل لاحظتِ كيف انتهى الفيلم؟ هناك قطع مفاجئ للموسيقى، ولكلّ شيء.

لا أصادر رأي المُشاهد، بل أدعه يتخيل ما يريده. إذا أرادها جريئة، فإنها كذلك، أي أنّها قرّرت مصيرها وقالت لا. صارت حياتها غير معقولة في هذا الوادي. أخذت السيارة وانطلقت. لكنْ، في هذا الوادي، لا مهرب.

■ تركْتَ النهاية مفتوحة، لكنْ ليس كلّياً، فلعلّ المرأة هربت أو انتحرت، أو عملت بنصيحة الأم: التضحية بسعادتها لأجل ابنها.

النهاية مفتوحة، لكنّها ستفكّر بابنها، الذي عمره سبع سنوات، كثيراً. هذا انتحار. كارثة للصبي ولها.

■ من طبيب أسنان إلى مخرج أفلام. كيف حدث هذا التحوّل؟

لم أمارس الطب.

■ في أي مرحلة قرّرت دراسة السينما؟

في السنة الرابعة، اكتشفت المسرح، فدرسته. انتسبت إلى مدرسة المسرح في ستراسبورغ. آنذاك، كان عليّ إكمال الدراسة وفاءً لوعد قطعته لوالدي، إذْ عندما علم أنّي اتّجهت إلى المسرح، قال إنّه سيُرسل تكاليف الدراسة، شرط إكمال دراسة الطب، والحصول على الشهادة.

■ اكتشافك الفن ورغبتك في دراسة الفنون، لم يكونا موجودَين قبل طبّ الأسنان؟

نعم، هذا صحيح. لم يكن وارداً هذا أصلاً. أحبّ المسرح منذ أيام المدرسة. لكن دراسته لم تكن واردة. كالآخرين، فكّرت بدراسة الطب، فعمّي طبيب. في البداية، درسنا عاماً في فرنسا، ثم التخصّص لاحقاً. حينها، لم يكن لي مكان في الطب، فأُرغمت على طبّ الأسنان.

■ وكيف حصل التحوّل من التمثيل إلى الإخراج؟

درست التمثيل فور تخرّجي، ثم مثّلت في مسارح أوروبا. عدت إلى لبنان واشتغلت مع السينمائي غسان سلهب، واكتشفت لبنان. تركت البلد طويلاً. العودة إليه مليئة بشوق كبير. مثّلت في أفلامٍ عدّة لسلهب، ثم بدأت إخراج الأفلام.

■ هل أثارت فيك تجربتك مع سلهب فكرة الإخراج؟ فبعد «أرض مجهولة»، هناك «الرجل الأخير» (2006)، فـ«الوادي» (2014).

لا. عملي مع غسان أعادني فقط إلى لبنان.

■ يتميّز غسان بقدرته على الصمود في تمرّده ضد السينما التقليدية. اختياره لك يعني أنّه رأى فيك شيئاً مختلفاً. ماذا تمثّل لك هذه التجربة؟

غسان صديق حميم. الصداقة موجودة أيضاً في نظرتي إليه كمخرج. لا أستطيع الفصل بينهما. لذا، يصعب أنْ أحكي عنه. ربما يمكنني الحكي عن صديقي غسان، الذي أحترم عمله كثيراً، وأعتبره فناناً مهمّاً للغاية، بل من أهمّ سينمائيي لبنان والشرق الأوسط. له عالمه وتساؤلاته وثقافته. مهووس بسينما خاصة به. هذه نقطة قوّة، وأيضاً نقطة ضعف. أحبّ أفلامه كثيراً. ليس كلّها. لكنْ، تظلّ أفلامه عالماً يخصّه. عالم قوي إلى درجة أنّه كقصّة حب. مثل غودار. الممثلون يصنعون فيلماً أو فيلمين. إنّه مكتفٍ بعالمه. في «أرض الوهم»، من دون ممثلين، لن يكون هناك فيلم. أحبّ الممثّلين، لأنّي ممثل، وأرى أنّ كل نجاح الفيلم عائدٌ إلى الممثل. لكنْ، غسان لا. يُعطي إخلاصه كلّه للعالم الخاص به أكثر من الموضوع. مهووس بالصُّور، والممثل عنده يمثّل ويُوضع في الصُّور.

كارلوس شاهين: لم اكتب شيئاً يُضحك وآخر يُبكي (الملف الصحافي)

■ عندما اتّجهتَ إلى الإخراج، لماذا بدأت بأفلامٍ قصيرة قبل المسرح؟

أخرجت فيلماً قصيراً بعنوان «الطريق إلى الشمال»، ونجح كثيراً، وفاز بجوائز عدّة، فتشجّعت، وبدأت أشتغل على روائي طويل. كتبت السيناريو، لكنّي لم أستطع تدبير أموال لإنتاجه، فبقي هكذا خمس سنوات. تركته، وسافرت إلى لبنان. بما أنّي قادمٌ من المسرح، بدأت فيه. كنت أترجم مسرحيات أجنبية وأقدّمها. كلّها ناجحة. لكنْ، ليس هذا ما أريده. ليس هذا ما أحلم به. كنت أشتغل في المسرح فقط ليمرّ الوقت، وأستطيع إنجاز فيلمي.

■ التأمّل بشخصيات «أرض الوهم» يكشف أنّ هناك ثلاث نساء يصنعن البهجة في مفاصله. كأنّك تريد التخفيف من وطأة المأساة. هل فعلت ذلك لضبط الإيقاع، أم لتحقيق التوازن؟

لا، لم أفكر هكذا. اخترت ثلاث نساء لأنّ هناك الأخوات الثلاث في «بستان الكرز» لتشيخوف، وأيضاً لأنّ عائلتي تضمّ أمّي وخالَتَين، أي إنّهنّ ثلاث. كذلك جدّتي. التفاصيل جاءت من عالم عشته وأعرفه جيداً. لم أفكر في كتابة شيء يثير الضحك، وفي مقابله شيء يُبكي. لم أنسج الفيلم بهذه الطريقة.

■ ربما من دون وعي كنت تريد ألّا يكون الفيلم دراما سوداء، وأنْ تضع فيه بعض البهجة؟

القصة بالنسبة إليّ تراجيدية.

■ قصة تراجيدية، بالفعل. لكنّك وضعت فيها ما يُثير بهجة ومرحاً.

أحبّ هؤلاء الناس لأنّهم يحبّون الحياة والأكل والتسلية. إنّهم أشخاص «حلوين». كذلك زوج ليلى «مهضوم» جداً. وليلى أكثر شخصية محبّة للحياة. رغبتُ في إظهار العائلة سعيدة.

■ فعلياً، لم تكن الشابات سعيدات في السياق، لأنّ الأشياء مفروضة عليهن.

لكنّهن لم يتزوّجن بعد. والدهن يحبّهن كما أمّهن. كلّ واحد منهما يُفكّر بفعل الأحسن لبناته. الشيخ داوود يعتقد أنّه يزوّجها لأفضل شخص، وأنّها ستكون سعيدة كما يعيش هو حياته.

■ ألم تقلق من فكرة أنّ شاباً فرنسياً سيُضيء لها، ويشجّعها على اتّخاذ هذا القرار؟

ليس هو الذي شجّعها على هذا القرار، ولا هو الذي أضاء لها.

نبذة

مولودٌ في لبنان، غادر كارلوس شاهين وطنه عام 1975 بسبب الحرب الأهلية. درس طبّ الأسنان، واكتشف المسرح فمارس التمثيل. بفضل السينما، أعاد التواصل مع بلده. منذ عام 2008، كتب وأخرج ومثّل في ثلاثية عائلية عن والده وأمه والطفل الذي كان عليه: «طريق الشمال» و«تشيخوف في بيروت»، و«ابن المقامر». «أرض الوهم» أول روائي، ويُعدّ حالياً ثاني روائي طويل، «الحي الاميركي».